اشتغال الوصف في الخطاب الروائي

The Description Works In The Novel Discourse

تاريخ الإرسال:2017-10-31 تاريخ القبول: 2018-01-06

الطالب: عبد العزيز بن دريس

bendrissabdelah@gmail.com

المشرف: الدكتور محمد حمودي

مخبر السرديات جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

طالب دكتوراه بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف- الجزائر

الملخص باللغة العربية :

يعتبر الوصف مورد اللسان البشري يستقي الإنسان من معينه فنون القول وتدفق الكلام ، فهو يعدّ بحق وسيلة جبّارة في تشييد معمارية النص الأدبي وصياغة أفكاره ، فالوصف كما هو معلوم لا يكتفي بالتصوير و بثّ المشاهد ، بل نجده أيضا يشتغل في خصوبة العقل وما يعرضه من تصوّرات الواقع بأشكال مختلفة ، ولعلها القيمة المضافة لجودة العمل الإبداعي وتميّزه ، فكل عملية وصفية لا تبرح محور(اللغة ،الواقع ،الخيال).

وليس من شكّ أنّ الوصف الجميل هو الذي يحقق التناغم بين هذه الإحداثيات ، حيث ينعكس ذلك في وعي المتلقي فيبدي منه الإعجاب والغرابة بما يكتنزه من طاقة تعبيرية وقدرة تصويرية تزيد من شعريته واتّزانه ، ولذلك يصحّ القول بأنّ الرواية هي مختبر القول والوصف هو مهندس التصوير وباعث على التصوّر.

الكلمات المفاتيح : اشتغال– الوصف– الخطاب– الرواية .

Summary:

The description of human language resource derive the rights of a certain art of saying the flow of speech, it is really a powerful instrument in the construction of literary text of architecture and formulate its thoughts, description As is well known not only filmed scenes broadcast, but we find that it also operates in the fertility of the mind and presented by the perceptions of reality in different ways, perhaps the added value to the quality of work of creation and excellence, any descriptive process does not start from the axis (language, fact, fiction), and no doubt that the description is pleasant is that achieves the harmony between these coordinates, as evidenced by the Awareness of the recipient Vibdi likes the strangeness of which graphical power treasure and the ability to increase poetic pictorial and balance, but it is true to say that the novel is to di re the description is the imaging laboratory engineer on the transmitter and visualization.

Keywords: operation- Description- speech - novel.

يحضر الوصف في الرواية كأهم معطى بنيوي دلالي في عملية صياغة العمل الروائي ككل ، شأنه شأن باقي مستويات الخطاب الروائي من سرد وحوار وشخصيات وغيرها ، وقد يرجع السبب في هذا الحضور إلى قدرة الوصف على التشكّل والتقمص ، ثم الانسحاب والحضور وقت يشاء بتواطؤ مع السارد ، وكذلك في مرونته وسهولة اندماجه داخل النص.

ولعل من مسوغات حضور الوصف في جوف العمل الأدبي يترجمه اهتمام الكتّاب والمبدعين القدماء والمعاصرين بهذه البنية الخطابية ، على الرغم من اختلاف طرائقهم في الأساليب والمضامين ، وإذا كانت غاية الوصف هي الأخبار عن هيئة الموصوف وتوصيل صورته إلى المتلقي فان الأشكال والوسائل متعددة بتعدد الوسائط ، وهذا ما نلتقطه ضمن طرائق السرد المختلفة ومنها الرواية ،التي يكون فيها السرد مدجّنا بحضور الوصف بكثافة والأمثلة التي نضربها على ذلك كثيرة ومتعددة نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر ما كتبه الجيل الأول من الروائيين كوصف السيدة بوفاري عند فلوبير، أو ما أبدعه حسين هيكل من رسم مشاهد الريف في روايته زينب، تم من تلاهم من الجيل اللاحق على غرار إبداعات عبد الرحمن منيف في النهايات والسفينة وبراري الحمى ، وقبله نجيب محفوظ في وصف المدينة أبناء حارتنا ، وكذلك تزخر أعمال محمد ديب في الحريق، ومولود في الابن الفقير ومن بعدهم أعمال كثيرة لا يتسع المقام لإحصائها مثلما هو موثق في أعمال الحبيب السائح ، رشيد بوجدرة ، أحلام مستغانمي والقائمة طويلة .

إن رسم المكان بواسطة اللغة هو السبيل الأكثر انتشارا في الفن الروائي ، وان كثيرا من الروائيين كثيرين استنكروا استبدال وصف الأمكنة ووصف الأشخاص بصور فوتوغرافية أو مرسومة بأيدي فنانين تشكيليين ، أو بواسطة الفن السينمائي ، وبقيت اللغة السبيل الأبرز وان لم يكن الوحيد الذي اعتمده الروائيون في بناء أمكنتهم وفي وصفها أيضا[1]، ومعنى ذلك أن اللغة تقوم مقام الوساطة في الانتقال بين الأمكنة والأزمنة ، تقفز من مستواها الطبيعي الى مستوى الخيال والتجريد . " فمن اللحظة الأولى التي يفتح فيها القارئ الكتاب ينتقل الى عالم خيالي من صنع الكلمات ، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني الذي يوجد فيه القارئ "[2]

إذن أضحى الوصف إحدى التقنيات الغالبة ، الموقوفة على الخطاب الروائي شكلا ومضمونا إذ يشارك إلى جانب السرد والحوار في تصوير الحدث وتطوره " فيكشف عن الشخصية ويستبطن داخلها "[3]، من هذا المنطلق يكشف عن بؤرة أساسية في تحول الخطاب الروائي من مستوى الاستعراض والتنميق والزخرف إلى مستوى الإنماء، والاشتغال العميق للبنيات الدلالية للغة الوصفية ، والتأمل في مرجعياتها الثقافية والفكرية ، وهذا يختلف من كاتب لآخر تتحكم فيه عوامل ذاتية مرتبطة بإمكانات المبدع ومؤهلاته ، وعوامل خارجية يضبطها النسق الثقافي العام.

أما من الناحية الاستغراق فلا نضيف جديدا عما عدّه جيرار جنيت في توصيفه للسرد بالدينامية والتحوّل ، والوصف المتميّز بالسكون والتريث، فالمسألة موقوفة زمنيا على مبدأين أساسيين هما الحركة (السرد) والبطء(الوصف). والقضية أشار إليها جان ريكاردو، وأسس لها فيليب هامون نظرية خاصة ،كما أعاد لها الكرّة حسن بحراوي .

ونجد أيضا من تقنيات الوصف المشهد (scène) الذي غالبا ما نقاربه بالعمل المسرحي الموزع عبر فصول، ويعبر كل مشهد عن فكرة أو قيمة اجتماعية أو إنسانية وغير ذلك من المقاصد التربوية أو الأخلاقية.

كما يقترن المشهد ببعض النماذج السردية الأخرى مثل الحذف (ellipse)الذي يركز فيه الراوي على بؤرة الحدث الرئيس بشكل موجز مباشر، مما يعتري الموقف بعض شوائب الغموض بسبب الاختزال والتجاوز المفتعل. وهذا على عكس المشهد الحواري الذي يتميّز بالامتداد والإطناب ، حيث يفسح المجال للمتحاورين بصفة مباشرة للتخاطب ، وهي اللحظة الزمنية التي يتوقف فيها السرد عن الحركة " يتطابق زمن السرد بزمن القص من حيث مدة الاستغراق "[4]، إذ يتنازل الراوي عن منبر الخطابة ويترك الأشخاص يتكلمون بحرية دون مقاطعة أو تعقيب ، حيث يتلقى القارئ خطاب الأشخاص بشكل مباشر متناسيا عمل الراوي المتواري وراء هذا المنبر .وهذا ما يتجلى في الوقفة الوصفية (pause)التي تشبه أسلوب العرض في المشهد الحواري ، أو من خلال تدخلات الراوي للتفسير والتبرير.

كما يمكن النظر في خاصية تلقي النص الوصفي من خلال مستويين رئيسيين هما :

– المستوى السطحي:

يؤدي فيه الوصف وظيفة الإخبار والإظهار المباشر لما هو متاح أمام العين ، ويفترض لأداء هذه المهمة تآلف عالمين هما الواصف والموصوف.

– المستوى العميق:

يركز هذا النمط من الوصف على المتلقي باعتباره مشاركا في بناء العمل الروائي من خلال قراءته التأويلية وتصوّره للوقائع والأحداث ، فالوصف يتجدد مع تجدد القراءة متماسكا مع تلك المعاني الجديدة التي يضيفها القارئ للنص الروائي ، كما يهتم هذا المستوى باستثمار مختلف الوسائط التعبيرية التي تقدّم الخطاب كاللغة المشفرة بالرموز والمجازات والانحرافات الدلالية ، ذلك أنّ الخطاب المعاصر يميل إلى قصد الغموض والالتباس المتعمّد فنجد نصه ممزوج بمسحة شاعرية تزيد عمله رونقا ومتانة .

يتحدّث جان ريكاردو عن العلاقات الجانبية التي يضيفها الوصف إلى المعنى وهي ما يصطلح عليها لسانيا بوظائف الوصف ، التي تأتي من أجل توضيح المعنى وتشعير الخطاب وهي تتمظهر في وظيفتي التفسير والترميز، يتلقى القارئ المسندات الوصفية تلقائيا بحكم البيئة الاجتماعية التي تجعله يستقبلها بمنطق الرضي والقبول ، باعتباره جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة الاجتماعية ، يتأثر بها ، ويسعى إلى التأثير فيها فمثلا إذا تكلمنا في مجال الفلاحة أو العمران، في العلاقات الحميمية بدت في الأذهان نماذج مختلفة من الأوصاف ، الفلاح يقابله الحصاد والحقول، العمران يقابله تصميم هندسي منتظم ، وأمّا العاشقان ترى في كلامهما نبرة هادئة وجوا مشحونا بعواطف الحب والصبابة [5]

هذا ويوجب البحث فبكيفية اشتغال الوصف في النص بمراعاة " السند المرجعي (الواقعي) والدلالة الفكرية والأيديولوجية والاجتماعية والنصية كذلك بوصفها قيمة أولى دلالة إبداعية كتابية مراعية سندها الخارجي "[6]

وبالتالي فان ارتباط الوصف بالمعنى يصبح أكثر من خلال تطلعهما لأداء المهمة نفسها ، والتي تتمثل في إثراء علاقة الإنسان مع بيئته ومع اللغة والأدب والحياة فيأتي أحيانا " ببعض الصفات المجردة فيجسّمها بصورة ماثلة للعيان ، يبث فيها مشاعر الأحياء وميزاتهم مما يجعلها تنبض بالحياة والحركة "[7]

إنّ مهمة الوصف في الخطاب جليلة ومهمة لا يمكن الاستغناء عنها بسهولة ، لأنه من خلاله يمكن صياغة الحياة بذكاء ، و بطرق شتّى ، ولا يمكن أن يكون الوصف مجرد محاكاة بسيطة للواقع المادي ، شأنه شأن الصورة الفوتوغرافية أو اللوحة الزيتية ، بل يمكن اعتباره وعاء ضخما يسع صندوق الأفكار ومحبر اللغة وفضاء الزمان والمكان . فهو يقدّم المادة الإخبارية (المعرفة) ويزيد عليها مؤثرات الجمال والتميّز أثناء العرض .

إنّ للوصف قدرة عجيبة على لباس المعنى وتقمصه حين يبسط جناحيه على السرد ويطوف بظلاله فوق المعاني والأفكار ، وكأنه يقوم بدور الوسيط الإعلامي في نقل الصور والمعلومات للقارئ الذي يترجمها حسب تصوراته ومهاراته القرائية ، " كون التصوير يلزم الذهن بمبارحة خطاب المعنى حيث لا يتم تلقي الخط ذاته لأنه ليس إلا عنصرا تمييزيا أو دالا في لوحة الدلالات ، كما يلزمه بمبارحة شفافية التبليغ أي الطريقة المباشرة لحضور المعنى في السطر التي اعتادها الفكر الذي دجّنته مواضعات اللغة والخطاب إلى جهد بصري غير محدود"[8]

أثناء عملية التصوير تبطئ حركة الأحداث وتزداد قرنية العين اتساعا لترى الأشياء بأبعادها الظاهرة والخفية، والنتيجة التي نستشفها من خلال هذا العرض الموجز لآليات بناء الصورة الأدبية عن طريق الوصف الذي يتسل اللغة كمعيار حاسم في الرسم بالكلمات أن تقنية التصوير بالوصف ليست فقط صورة فنية ، بل نلحظها صورة سيميائية متممة لتبليغ مقاصد الخطاب ، ومشركة القارئ في تشييده فكأنّ اللغة " تتكفل بنصف ما تريد قوله وتترك النصف الآخر للمتلقي ، وتتشكل الجمالية ويتم التضافر بين المرسل والمستقبل ، أو بين الكاتب والقارئ "[9]، حيث يشاكل الوصف هنا بين الوظيفة التفسيرية وهي الغالبة في النص لأنها مبنية " على أساس الحواس ، إذ هي تساعد على توسيع مجال الرؤية بإشراك السمع واللمس والحركة بل والشم، وتبقى الرؤية البصرية هي العنصر الحاسم في عملية الوصف "[10] وبين الوظيفة الرمزية ، التي تعبّر بذاتها عن وظيفة إدراكية بحتة .

المراجع:

1- ينظر صلاح صالح : قضايا المكان الروائي ، دار الشوقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة 1997،ص: 61

2- سيزا قاسم : بناء الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1945، ص:75.

3- هيام شعبان : السرد الروائي في أعمال ابراهيم نصر الله ص، ص :199-200.

4 – حميد الحميداني : بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت/الرباط ، ص :78.

.

.

5- ينظر حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ، ص :180.

6- ناصر يعقوب : اللغة الشعرية وتجلياتها في الرواية العربية (1970-2000) وزارة الثقافة ، الأردن 2004،ص :255.

7 – عبد الحليم الهروط : النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب ، دار جرير ط1، الأردن 2006، ص:220.

8- محمد الماكري : الشكل والخطاب ،مدخل لتحليل ظاهراتي ، المركز الثقافي العربي ،بيروت/الرباط 1991،ص:112.

9 – عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، ص:293.

10- حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ،ص:180.